

كونشيرتو بيروت - أب ٢٠٠٦ م

أدونيس

- ١ -

ما يدعوك إلى النوم؟ رغبتِي الآن أن أستيقظ في موسيقى بتهوفن.
الأفكار، في هذه اللحظة، طيور من القش.

- ٢ -

هل نسيت الشمس نشيدها الذي كانت تغنيه في ساحة البرج؟ متى
سيُصلح الفجرُ عربته، ويخرج من بيته في ثياب العمل؟ وهذا
الغبارُ الذي تَرْتَجِلُهُ القذائف، متى ستكنسه الريح؟

أستضيء بهذه الأجساد التي مزقتها الآلات، وتبعثرت في المعادن والحجارة،
في الذرات والكهارب. لكن، كيف أسندك وأنت من قصم ظهري؟
ولا جدوى في أن أقول لك: وداعاً. هذه كلمة لا يعرفها قاموس
الضوء.

هكذا، فَوَضَّ إِلَيَّ الحِلْمَ حِرَاسَةَ أبوابِهِ، وَأَخَذَ مَفَاتِيحَهَا. هُنَا، عَلَى سَطْحِ
هَذِهِ الوَرَقَةِ، تَعْدُو أَفْرَاسُهُ وَتَرُوحُ. مَاذَا أَقُولُ، أَيُّهَا الحِلْمُ، لِذِمِّي الَّذِي
يَسِيلُ فِي مُنْحَدَرَاتٍ أُخْرَى؟

خان الموسيقى -

لا آلات . أوتارٌ تتقطع غيرَ مرئية .
والأصواتُ كمثلِ مَطَرٍ في غيرِ أوانه .

خان الحرير -

هل تأخذون شرابَ التوتِ مَسْكوباً في كؤوسٍ كأنَّها شَرَانِقُ
مِنَ القَزِّ؟

خان البيض -

كلٌّ خارجٍ مُتَّهَمٍ . كلٌّ داخلٍ بَرِيءٍ .

خان البربير -

نوافذُ كمثلِ أَهدابٍ تَسِيحُ في بَحِيرَةٍ مِنَ الدَّمَعِ .

خان الحلاج -

لا ينتظرُ أحداً . لا يأملُ شيئاً؟ جَسَدٌ وَاقِفٌ يَتَعَكَّرُ عَلَيْهِ الهَوَاءُ .

خان السيد -

هل السيدُ لا يزالُ يَغْسِلُ وَجْهَهُ فِي حَوْضٍ مِنَ الدَّمِ؟

خان التوتة -

ما أعجب هذه الشجرة! ولا تتوقف عن السير، لكن صعداً.

سَمَاءٌ قَبْلَ السَّمَاءِ .

خان شيخ المكارية -

الطَّرِيقُ إِلَى بَيْتِ الْمَرْأَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا، انْقَطَعَتْ . وَهِيَ تَمُوتُ
فَاتِحَةً ذِرَاعَيْهَا .

خان ثابت -

مَا أَكْثَرَ التَّجَاعِيدَ فِي وَجْهِ هَذَا الدَّرْبِ !
مَا أَعْمَقَ الحُفْرَ فِي جَسَدِ هَذَا الْوَقْتِ !

خان سوق الطويلة -

يَنْسَكُبُ الصَّبَاحُ مِنْ إِبْرِيْقِهِ كَمِثْلِ شَايٍ أَخْضَرَ .

خان الصَّغير -

أَخَذَتْهُ طِفْوَلَةٌ الْحَرَكَةَ .

خان سعيد آغا -

يَدُ السَّفَرِ عَلَى جَبِينِكَ .
وَالْحَيْرَةُ رَأْسُكَ الْآخِرُ .
هَلْ سَيَكُونُ الْبُعْدُ شَرِيَانًا لِلْقُرْبِ ؟
هَلْ سَتَكُونُ الْمَسَافَةُ رِئَةً لِلْمَسَافِرِ ؟

- ٣ -

مَعًا، فِي اللَّحْظَةِ نَفْسَهَا، يَهْبِطُ فِي نَفْسِي اللَّيْلِ، وَيَطْلُعُ الْفَجْرَ . مَسَاءَ الْخَيْرِ،
أَيُّهَا الْخِرَافُ الَّتِي تَرْتَعُ فِي حَدَائِقِ الْمَادَّةِ . صَبَاحَ الْخَيْرِ، أَيُّهَا الذُّنَابُ
الَّتِي تَسْرَحُ فِي مَدَائِنِ اللَّغَةِ .
مَا لِهَذَا الزَّمَنِ لَا يَكْفُ عَنْ جَدَلِ الْأُفُقِ بِحِبَالِ اللَّهَبِ ؟ أَلَدَيْكَ، أَيُّهَا
الْمُسْتَقْبَلُ، خَيْطُ أَقْلٍ وَهَنَا مِنْ خَيْطِ هَذِهِ اللَّحْظَةِ ؟

وأنت، يابن آدم، هل سترقد يوماً بلا جراح، بين الفرات والنيل؟

- ٤ -

"أي الملائكة أكثر إصغاءً لابن آدم؟"

سألني رأس إلكتروني. لا أعرف. تبدو تلك المدينة كمثل مركب:

تجدف، وما أبعد الشواطئ!

كأنما لم يبق ما نراقصه غير الدخان.

ليهبط قراء السماء على أرضنا، إن كانوا يريدون أن يصغوا، أو أن يقرأوا
ما كتبتهم نجومهم عنا.

- ٥ -

استيقظ. لم يجد خبزاً. مع أن ذاكرته مسرّح دائم للقمح وسهوله. غسل
بماء وجه الصباح. تلك لحظة لم يقدر أن يتحدث فيها إلا مع الركام

والأشلاء، مع الثقوب والتصدعات. أرجأ الحوار مع الأكفان

والقبور. ومع رؤوس الأطفال المهشمة. لم يعرف ماذا يقول عن

أولئك الذين تركوا بيوتهم إلى الطائرات والقنابل الذكية.

أي طبق شهّي يُقدّم لكم الآن، أيها الجنود الأسرى، الذين حُطفوا

لكي يقيموا في بيت الله؟

وكيف يبلغ سن الرشد شخص تده الآلة؟

- ٦ -

لم يعطني من أبوته إلا شجرة لا تظل ولا تثمر. حقاً، الغيب بلا أحد،

والواقع لهيكل يرفع باسمه.

غَيْبٌ - خَاتَمٌ فِي يَدِ الْبَطْشِ . أَوْ فِي يَدِ الْمُصَادَفَةِ .
 أَلِهَذَا، أَيُّهَا الْأَيَّامُ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ إِصْطَبَلِ السَّمَاءِ، تَعْرُجُ خِيُولِكَ، وَتَتَصَبَّبُ
 عَرَقًا؟

أَلِهَذَا، لَا تَقْدِرُ الْغَيُومُ الَّتِي تُسَيِّجُكَ أَنْ تُقَدِّمَ قَطْرَةً وَاحِدَةً لِهَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي
 تَتَشَقَّقُ عَطَشًا؟

صَنِينَ خُذْ شِتَاءَكَ، وَوَزَعَهُ عَلَى فَقَرَاءِ الصَّيْفِ . خُذْ عَصِيَّكَ - النُّجُومَ
 وَالشُّهُبَ وَالْمَجْرَاتِ، وَهَشْ بِهَا عَلَى الْحَقُولِ وَالْأُودِيَةِ . قَلْ
 لِلصَّحَائِفِ الَّتِي يَعَشَّقُهَا حَبْرُكَ أَنْ تَمْسَحَ الْغُبَارَ عَنْ جَبِينِ الْفِضَاءِ .
 إِدْمِجْنَا فِي شُعَاعِكَ . أَهْلُنَا لَكِي نَكُونَ هُبُوبًا فِي هَوَائِكَ . أَلِهَمْنَا لَكِي
 نَخْتَرِقَ هَذِهِ الْكثَافَةَ، وَلَكِي نَعْرِفَ كَيْفَ نَكْتُبُ الْفَجْرَ .

-٧-

هُوَذَا حَبْرُ لِبْنَانِ، يَتَدَفَّقُ مِنْ أَمَاكِنَ - حَقُولٍ لِلْمَشْرِدِينَ وَالْقَتْلَى .
 لَكِنَ، هَلْ صَاحِحٌ أَنْ عَلَيْنَا أَلَّا نَكْتُبَ عَنْ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ؟ أَسْمَعُهُ كَنَارِيًّا
 يَنْشِجُهُ عَلَى قَمِيصِهَا . تُغَطِّيهَا أَقْنَعَةٌ، وَعُصُورٌ وَخَنَافِيسُ . يَهْجُمُ عَلَيْهَا
 الزَّمَنُ مِثْلَ رِيحٍ يَهْجُمُ عَلَى ثَدْيِي أُمِّهِ . تُحِيطُ بِهَا أَزْهَارٌ لَيْسَتْ إِلَّا
 أَجْسَادًا لِنِسَاءٍ فِي أَسْرَةِ الْحَبِّ . قَدَمَاهَا سِلَاسِلُ وَالسَّمَاءُ هِيَ الَّتِي
 تَرْقُصُ بِهِمَا .

شَيِّخَتْ حَتَّى الرِّيَّاحُ الَّتِي تَهْبُّ فِي بَسَاتِينِهَا .
 لَكِنَ، هَلْ عَلَيْنَا أَنْ نَتَخَيَّلَ مَا لَا نَرَاهُ، لَكِي نُحَسِّنَ رُؤْيَا مَا نَرَاهُ؟
 لَكِنَ، عَمِّقُوا، عَمِّقُوا نَبْعَكُمْ الْكَرِيمَ صَنِينَ .

-٨-

- لَا تَسْأَلْنِي . لَا غَطَاءَ لَهُ غَيْرُ اللَّغَةِ .
 - أَلَيْسَتْ اللَّغَةُ لِحَافًا مَلِينًا بِالثَّقُوبِ؟

- لا تسألني . لا طريقَ له .
- تلك هي تماماً طريقه .
- لا تسألني . أنت لا تُوقِن، وأنا لا أَشكُّ
- آه، من علم الهيئة . . ما أوضَّحه وما أكثر التباساته!!

- ٩ -

أَلنَّ تَضْطَرِّبَ، أَيُّهَا الْوَرَقُ، أَمَامَ احتضار المعنى؟
الدَّرُوبُ كُلُّهَا،
لا تَنْفَتِحْ إِلَّا فِي اتِّجَاهِ الْهَآوِيَةِ .
وَمَا هُوَ الْحَاضِرُ يَدْبُّ عَلَى أَذْرَاجٍ مِنَ الدَّمِّ، وَيَلْتَحِفُ سَمَاءً حَمْرَاءً .

- ١٠ -

لا مَأْوَى فِي الْكُتُبِ . وَلَا بُدُّ مِنْ أُنُوثَةٍ لَذِكُورَةِ الْوَقْتِ . جَسَدُهُ كَمَثَلِ الْمَدِينَةِ،
يَكَادُ أَنْ يَذُوبَ فِي مِيَاهِ لُغَاتٍ لَا أَبْجَدِيَّةَ لَهَا . وَالْعَجَبُ أَنَّهُمَا فِي مَقَامِ
الصَّغْرِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَجْلِسَانِ تَحْتَ ظِلِّ الْوَاحِدِ .
كَمَنْ يُمْسِرُحُ الْمَاءِ عَلَى خَشْبَةِ الرَّمْلِ .

هَلْ يَثِيقُ، إِذَا، بِكِيمِيَاءِ الْمَعَادِنِ وَسِحْرِ الْأَنْبِيْقِ؟ بِأَفْكَارٍ تَزْهَرُ وَتَذْبَلُ فِي حَقْلِ
النُّومِ؟ بِنُورٍ لَا يُضِيءُ الشُّوَارِعَ بِلِ خَطَوَاتِهِ؟ بِرِجَالٍ يَتَكَلَّمُونَ مَعَ
ظِلَالِهِمْ، وَنِسَاءٍ يُغَازِلْنَ ثِيَابَهُنَّ؟
سِيرِي، يَا أَيَّامَهُ، عَلَى عُمُكَازَاتٍ مِنْ قَصَبِ اللُّغَةِ .

- ١١ -

لِمَاذَا لَا يُشْحَذُ سَيْفُ الْحَاضِرِ إِلَّا لِكَيْ يَسْهَرَ عَلَى صَلَاةِ الْمُسْتَقْبَلِ؟ هَكَذَا
تَبْدُو الْحَيَاةَ كَأَنَّهَا لَيْسَتْ أَكْثَرَ مِنْ حَاسَّةٍ لِلْمَوْتِ . تَتَكَيُّ الْقَنَايِلُ عَلَى
أَبْوَابِ الْمَدَارِسِ، وَتَكُونُ الْخَنَادِقُ أَسْرَةً لِلْأَطْفَالِ .

اربطوا، إذًا، عُنقَ هذه الأرض بِحَبْلِ هذه السَّمَاءِ . سَمُّوا طَائِرَاتِكُمْ
وَصَوَارِيخَكُمْ بِأَسْمَاءِ أَنْبِيَائِكُمْ . حَقًّا، هنالك أشعةٌ لا تقود إلاَّ إلى
الظُّلمات . حَقًّا، القوةُ مرضٌ، واليقينُ عصابٌ .

القمر يشكك في أحواض النساء .
هل عليّ أن أدفع ضريبة الولادة؟

- ١٢ -

طَمَرَ الكَلَامُ فِي طَمِي المَوْتَى . طَمَرَ الأَحْيَاءُ فِي طَمِي الكَلَامِ .
تَدْفُقُ ، تَدْفُقُ أَيُّهَا السَّيْلُ السَّيْلُ . تُجَارُ وَآلِهَةٌ : نَبِيذٌ وَاحِدٌ ، كَأْسٌ
وَاحِدَةٌ .

أَفْقٌ يَعْرُجُ ، طَيورٌ تَأْكُسدَتُ .
يَا لِلْجَسَدِ الَّذِي يَنْخُرُ - لَا يَنْخُرُ إِلَّا نَفْسَهُ !
العذابُ هَوَاءٌ دَاخِلَ الهَوَاءِ .

اسألوني : ما الواقع؟
وسوف أجيبكم : إنه الله في ثياب العمل .

- ١٣ -

نَادَهَا - عَنِيتُ المدينة .
سَتَرِي أَنَّ المُنَادَى يَتَجَزَّأ . يَتَبَدَّدُ فِي أَسْمَاءَ كَثِيرَةٍ ، وَكُلُّ يَتَسَاءَلُ : أَنَا مَنْ
تُنَادِيهِ؟
سَتَرِي أَنَّهَا كَمِثْلِ الغَطَاءِ : كُلُّ يَسْحَبُهُ إِلَيْهِ .
كَأَنَّمَا لَا فُضَاءَ لَهَا غَيْرَ الثَّلْجِ .

وَتَنْظُرُ : لَا تَرَى مَا تَنْظُرُ إِلَيْهِ .

عجمان

- ١٤ -

إِظْهَرُ، أَرْجُوكَ، لِحِظَةً وَاحِدَةً،
 فِي هَذِهِ الصَّحْرَاءِ الْهَائِلَةِ مِنَ الرُّؤُوسِ وَالْأَرْجُلِ،
 أَنْتَ، يَا مَنْ ابْتَكَرَ الْأَبْجَدِيَّةَ .
 اللَّغَةُ هِيَ نَفْسُهَا حِصَارٌ،
 وَلَيْسَ لِلسَّمَاءِ كَلَامٌ غَيْرَ الرَّمَادِ .

- ١٥ -

رِيحٌ مَرِيضَةٌ تَهْبُ فِي الْكَهَارِبِ وَالذَّرَّاتِ، فِي جَنَازَاتِ لِلصَّدَاقَةِ وَالْحَبِّ، فِي
 مَا تَمَّ لِدَفْنِ الْأَفْكَارِ، فِي دُرُوبٍ لَمْ يَعِدِ النَّمْلُ نَفْسَهُ قَادِرًا عَلَى
 الدَّيِّبِ فِيهَا .

يَدُ السَّمَاءِ تَعْمَلُ بِشَكْلِ وَثِيقٍ مَعَ الْحَرْبِ : كُلُّ شَيْءٍ زَائِلٌ إِلَّا الْقَتْلَ .
 أَمْرٌ نُقِشَ عَلَى قَرَصِ الشَّمْسِ :
 لَا تَغَيِّرُوا النَّاسَ، أَمْحُوهُمْ،
 أَنْ تَحْيَا هُوَ أَنْ تُبِيدَ وَتُبِيدَ .
 الْوَجُودُ فَنُّ الْفَنَاءِ .
 آذَانُ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ أَقْرَاطُ لآذَانِ تِلْكَ النِّسَاءِ .
 كَوْنٌ يُؤَلَّفُ كَمَا تُؤَلَّفُ الْخُرَافَةُ .
 إِنَّهُ الْبَخَارُ السَّمَاوِيُّ .

أَعْرِفُ أَنَّ الرُّوحَ لَا تُقِيمُ أَعْرَاسَهَا إِلَّا احْتِفَاءً بِالْمَادَّةِ . لَكِنْ، هَلْ حَقًّا، مِنْ
 الظَّلَامِ الْأَوَّلِ يَخْرُجُ الضُّوءُ الْأَوَّلُ؟
 سَأَلْتُ بَيْتْهَوْفَنَ، قَالَ: أَجِيبُكَ بِمَا أَحْبَبْتُ نَفْسِي - إِنَّ تَرَكْتُ حَبْلَ الْعَالَمِ عَلَى
 غَارِبِهِ،

إن لم أقل له طريقك وقبضتي رفيقان،
أفلن تنقلب عليّ الوحوش التي تختبئ في ذاكرة التاريخ؟

لكن، عليّ أن أقول لبتّهوفن، دون أن أودّعه: ببطء،
يخفق، هذه اللحظة، قلب الأرض.

باريس، آب ٢٠٠٦م